

التحرير والتنوير

وذهب قوم منهم أبو الفتح بن جني وعبد القاهر وابن مالك في التسهيل إلى أن أصل كاد أن يكون نفيها لنفي الفعل بالأولى كما قال الجمهور إلا أنها قد يستعمل نفيها للدلالة على وقوع الفعل بعد بقاء وجهه وبعد أن كان بعيدا في الظن أن يقع وأشار عبد القاهر إلى أن ذلك استعمال جرى في العرف وهو يريد بذلك أنها مجاز تمثيلي بأن تشبه حالة من فعل الأمر بعد عناء بحالة من بعد عن الفعل فاستعمل المركب الدال على حالة المشبه به في حالة المشبه ولعلمهم يجعلون نحو قوله فذبحوها قرينة على هذا القصد . قال في التسهيل " وتنفي كاد إعلاما بوقوع الفعل عسيرا أو بعدمه وعدم مقاربتة " واعتذر في شرحه للتسهيل عن ذي الرمة في تغييره بيته بأنه غيره لدفع احتمال هذا الاستعمال . وذهب قوم إلى أن كاد إن نفيت بصيغة المضارع فهي لنفي المقاربة وإن نفيت بصيغة الماضي فهي للإثبات وشبهته أن جاءت كذلك في الآيتين (لم يكذبها) (وما كادوا يفعلون) وأن نفي الفعل الماضي لا يستلزم الاستمرار إلى زمن الحال بخلاف نفي المضارع . وزعم بعضهم أن قولهم ما كاد يفعل وهم يريدون أنه كاد ما يفعل إن ذلك من قبيل القلب الشائع . وعندني أن الحق هو المذهب الثاني وهو أن نفيها في معنى الإثبات وذلك لأنهم لما وجدوها في حالة الإثبات مفيدة معنى النفي جعلوا نفيها بالعكس كما فعلوا في لو ولولا ويشهد لذلك مواضع استعمال نفيها فإنك تجد جميعها بمعنى مقاربة النفي لا نفي المقاربة ولعل ذلك من قبيل القلب المطرد فيكون قولهم ما كاد يفعل ولم يكذب يفعل بمعنى كاد ما يفعل ولا يبعد أن يكون هذا الاستعمال من بقايا لغة قديمة من العربية تجعل حرف النفي الذي حقه التأخير مقدما ولعل هذا الذي أشار إليه المعري بقوله " جرت في لساني جرهم وثمود " ويشهد لكون ذلك هو المراد تغيير ذي الرمة بيته وهو من أهل اللسان وأصحاب الذوق فإنه وإن كان من عصر المولدين إلا أنه لانقطاعه إلى سكنى باديته كان في مرتبة شعراء العرب حتى عد فيمن يحتج بشعره وما كان مثله ليغير شعره بعد التفكير لو كان لصحته وجه فما اعتذر به عنه ابن مالك في شرح التسهيل ضعيف . وأما دعوى المجاز فيه فيضعفها أطراد هذا الاستعمال حتى في آية لم يكذبها فإن الواقف في الظلام إذا مد يده يراها بعناء وقال تأبط شرا " فأبت إلى فهم وما كدت آيبا " وقال تعالى (ولا يكاد يبين) .

وإنما قال وما كادوا يفعلون ولم يقل يذبحون كراهية إعادة اللفظ تفننا في البيان . (وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها وإِخرج ما كنتم تكتمون [72] فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الموتى ويرىكم آياته لعلمكم تعقلون [73]) تصديره بإذ على طريقة حكاية

ما سبق من تعداد النعم والألطف ومقابلتهم إياها بالكفران والاستخفاف يومئ إلى أن هذه قصة غير قصة الذبح ولكنها حدثت عقب الأمر بالذبح لإظهار شيء من حكمة ذلك الأمر الذي أظهروا استنكاره عند سماعه إذ قالوا ألتخذنا هزؤا وفي ذلك إظهار معجزة لموسى . وقد قيل إن ما حكي في هذه الآية هو أول القصة وإن ما تقدم هو آخرها وذكرها للتقديم نكتة تقدم القول في بيانها وتوحيدها .

وليس فيما رأيت من كتب اليهود ما يشير إلى هذه القصة فلعلها مما أدمج في قصة البقرة المتقدمة لم تتعرض السورة لذكرها لأنها كانت معجزة لموسى عليه السلام ولم تكن تشريعا بعده .

وأشار قوله (قتلتم) إلى وقوع قتل فيهم وهي طريقة القرآن في إسناد أفعال البعض إلى الجميع جريا على طريقة العرب في قولهم قتل بنو فلان فلانا قال النابغة يذكر بني حن . وهم قتلوا الطائي بالجو عنوة ... أبا جابر واستنكحوا أم جابر E A